*حَيْصَ بَيْصَ وما في معناها*

*بحث في النحو*

*إعداد/ منى السيد عوض إبراهيم*

*قسم اللغة العربية*

*كلية العلوم الاسلامية – جامعة المدينة العالمية*

شاه علم - ماليزيا

*Mona\_aoud@yahoo.com*

***خلاصة—هذا البحث يبحث في حَيْصَ بَيْصَ وما في معناها.***

*الكلمات المفتاحية: الجار، المجرور، العطف*

# ***المقدمة***

معرفة *أسس حَيْصَ بَيْصَ وما في معناها* فاحذر أن تظنّ أن معنى قولنا: "حَيْصَ بَيْصَ" أن "بَيْصَ" توكيد لـ"حَيْص" أو أن "حَيْصَ بَيْصَ" على بعضهما كلمة واحدة، وإنما هما كلمتان، ضُمّت الأولى إلى الثانية، والضمّ يحتاج إلى حرف يضم، والحرف الذي يضمّ هو الواو، فإن سألت وقلت: فأين الواو؟ حُذِفَت. فإن سألت: ولم حذفت؟ فالجواب: لغرض التخفيف. فإن سألت وقلت: وهل هي مقصودة في الضمير؟ الجواب: نعم؛ هي مقصودة في الضمير، وفي النفس، وفي العقل؛ فالمعنى على العطف، فلمّا تضمّنا معنى حرف العطف بُنِيَ لذلك كما فعلوا في "خمسة عشر". هكذا يقول العلامة: "ثم حذفت الواو إيجازًا وتخفيفًا، والمعنى على العطف، فتضمّنا معنى حرف العطف؛ فبُنِيَا لذلك كما فعلوا في خمسة عشر".

1. *المقالة*

حَيْص بَيْص: مبناها، ومعناها:

هذه التراكيب التي تناولها العلّامة ابن يعيش لمفصّل الزمخشري، يقول: "العرب تقول: وَقَعَ الناسُ في حَيْصَ بَيْصَ: إذا وقعوا في فتنة واختلاط من أمرهم لا مخرج لهم منه".

هذه العبارة المضيئة تبدأ بقوله: "العرب تقول" ومعنى ذلك أننا نتّبع ما قالته العرب، وأنّ سندنا في إثبات اللغة ما ورد من فصيح كلامهم، وما ثبت من لسانهم ، فهم يقولون: هذا التركيب الذي نقله إلينا العلماء، ومنهم الزمخشري، ومن شرحه -أي: ابن يعيش- العرب تقول: "وقع الناس في حَيْصَ بَيْصَ" هذا تركيب له معناه، وله مبناه، وله دلالته، أما التركيب من حيث المبنى: فهو مبنيٌّ من اسمين صارا اسمًا واحدًا، أما الاسمان فالأول "حَيْصَ" والثاني "بَيْصَ"، وقد صارا اسمًا واحدًا أي: أنك تقول: "حَيْصَ بَيْصَ" بهذا التركيب وبهذا البناء، لا تقول: "حَيْصَ" ثم تسكت فتقول: "بَيْصَ" ولا تقول: "حَيْصَ وبَيْصَ" وإنما تسقط الواو، أي: أنك تنطق بالاسمين هكذا "حَيْصَ بَيْصَ".

متى يقول العرب "حَيْصَ بَيْصَ"؟

الجواب: يقول العرب "حَيْصَ بَيْصَ" إذا رأوا فئةً من الناس وقعت في فتنة واختلاط من الأمر لا مخرج لهم منها، أي أنَّ الأمل مستحيلٌ أو يكاد يكون مستحيلًا، إذا اختلط الأمر -ونعوذ بالله من الفتنة بعد اليقين ومن الفرقة بعد الاجتماع- إذا وقع الناس في فتنة واختلاط من الأمر، ورأى العقلاء ألا مخرج لهم من هذه الفتنة ومن هذا الاختلاط، قالوا: "وقع الناسُ في حَيْصَ بَيْصَ".

ثم يشرح ذلك ابنُ يعيش فيقول: "وهما -أي "حَيْصَ" و"بَيْصَ"- اسمان رُكِّبَا اسمًا واحدًا، وبُنِيَا بناء خمسةَ عشرَ".

نحن نعلم أن خمسةَ عشرَ، وستةَ عشرَ، وسبعةَ عشرَ، وثمانيةَ عشرَ، وتسعةَ عشرَ كما في قول الله تعالى: {ﮆ ﮇ ﮈ} [المدثر: 30] ألفاظَ العدد المركبة مبنيةٌ على فتح الجزأين، والجزءان هما خَمْسَة وعَشَر، رُكِّبَا فصارا خمسةَ عشرَ، والآية: {ﮆ ﮇ ﮈ} أي على النار، تقدّم الجار والمجرور، فهما أو متعلَّقَهما خبر مقدّم، ومعنى أنهما خبر مقدم أن ما بعدهما مبتدأ مؤخَّر، وأنتم تعلمون أن المبتدأ مرفوع، لكنّا نحفظ القرآن هكذا: {ﮆ ﮇ ﮈ} فالفتحة ليست علامة الرفع، فأين رفع المبتدأ؟ الجواب: أنه مبنيٌّ على فتح الجزأين في موضع رفع مبتدأ مؤخر.

والبناء لزوم حالة واحدة، ومعنى لزوم الحالة الواحدة أنّك إذا عَرفت أنّ النطق الصحيح تسعةَ عَشَرَ فأنت تلزم ذلك، سواء أجئت بالجزأين مبتدأً حكمه الرفع أقول: {ﮆ ﮇ ﮈ} وإن جئت به منصوبًا كأن يأتي مفعولًا به فتقول: "رأيت خمسةَ عشرَ رجلًا" لا تغرّنك الفتحة فتتسرّع قائلًا: إنها مفعول به منصوب. وإنما هو مبنيّ على فتح الجزأين في موضع نصب، وكذلك إذا جئت بهما مجرورين كأن تقول: "مررتُ بخمسةَ عشرَ رجلًا" تلزم فتح الجزأين مع أن قبلهما جار، هذا يجرّ المعرب، لكنه لا يؤثِّر بالجرّ في المبني، وها هنا مبنيّ على فتح الجزأين فيلزم حالته التي وردتْ عن العرب، وحالته الواردة عن العرب فتح الجزأين، فأنت تقول: "خَمْسَةَ عَشَرَ رَجُلًا عِنْدَنَا"، "إِنّ خَمْسَةَ عَشَرَ رَجُلًا عِنْدَنَا" "سَلَامٌ عَلَى خَمْسَةَ عَشَرَ رَجُلًا"... وهكذا، وإذا كان العدد المبنيّ على فتح الجزأين هو الأصل الأصيل للتراكيب التي حمل عليها وتحمل عليه، نقول: "حَيْصَ بَيْصَ" كما نقول: "خَمْسَةَ عَشَرَ".

يقول ابن يعيش: "وأوجب البناءَ تقديرُ الواو فيهما".

تستطيع أن تضع سؤالًا جانبيًّا بأن تقول: ما الذي أوجب البناء؟

وتستطيع أن تجيب عن هذا السؤال بقولك: لما تضمّنا معنى الحرف بُنِيا، أو سبب البناء أنّهما ضُمِّنا حرف العطف، فما حرف العطف؟ الجواب: الواو. إذن فما الأصل؟ الأصل "وقع الناس في حَيْصَ وبَيْصَ" أو "وقع الناس في حَيْصٍ وبَيْصٍ" فلمّا حُذِفَت الواو حدث بالتركيب البناءُ فصار التعبير هكذا: "وقع الناسُ في حَيْصَ بَيْصَ".

يقول ابن يعيش: أوجب البناءَ تقديرُ الواو فيهما، فالأصل "وقعوا في حَيْصَ وبيص" -على الضبط الذي قدمته لك- ثم حُذفت الواو إيجازًا وتخفيفًا".

ومن هنا تستطيع أن تضع موضوعًا جانبيًّا، قد تشتهي نفسك وقد يهفو عقلك إلى البحث فيه، وهو "أثر التخفيف والإيجاز في اللغة" هل للتخفيف وللإيجاز أثرٌ؟ الجواب: نعم. ما هذا الأثر؟ تستطيع أن تقول: الحذف. ما مثال الحذف؟ تقول: الحذف في "حَيْصَ" و"بَيْصَ" للتخفيف وللإيجاز، حُذِفَت الواو، فلمّا حُذِفَت الواو جاء التركيب بالبناء فصارت "حَيْصَ بَيْصَ"، وأنت تعلم أن البناء على الفتح معناه البناءُ على أخفِّ الحركات بعد السكون.

وأنبِّهكم إلى أنّ السكون خفّة الخفّة، يلي السكونَ الفتحُ، فالفتح خفيفٌ كالسكون، لكنّ السكون أخفّ شيء، وهنا يأتي هذا السؤال: إذا كان السكون أخفّ شيء فلماذا لم يبنَ التركيب عليه -أي لماذا لم نقل: "وقع الناسُ في حَيْصْ بَيْصْ" بسكون الصاد فيهما؟

الجواب: أنّ "حَيْص" اسم، و"بَيْص" اسم؛ فناسب الاسمَ الفتحُ، فالفتح إذن لمناسبة الاسمية، أي لمناسبة الاسمية -إلا أنك لا تنطق بهمزة الوصل هكذا، وإنَّما تقول: الاسمية، فتسقط همزة الوصل في وسط الكلام- فأنت تقول: الفتحُ مناسبٌ للاسمية ومناسب للخفّة؛ فاختير الفتح الذي هو أخفّ الحركات؛ لذلك كان في الفتح أمران: الأول مناسبة الاسم، والثاني الخفة.

يقول ابن يعيش: "أوجب البناءَ تقديرُ الواو فيهما، فالأصل وقعوا في حَيْص وبَيْص، ثم حذفت الواو إيجازًا وتخفيفًا، والمعنى على العطف.

وهنا نقف ونقول: ما معنى قوله: "والمعنى على العطف"؟

أي أن المعنى مقصودٌ فيه العطف، يعني احذر أن تظنّ أن معنى قولنا: "حَيْصَ بَيْصَ" أن "بَيْصَ" توكيد لـ"حَيْص" أو أن "حَيْصَ بَيْصَ" على بعضهما كلمة واحدة، وإنما هما كلمتان، ضُمّت الأولى إلى الثانية، والضمّ يحتاج إلى حرف يضم، والحرف الذي يضمّ هو الواو، فإن سألت وقلت: فأين الواو؟ حُذِفَت. فإن سألت: ولم حذفت؟ فالجواب: لغرض التخفيف. فإن سألت وقلت: وهل هي مقصودة في الضمير؟ الجواب: نعم؛ هي مقصودة في الضمير، وفي النفس، وفي العقل؛ فالمعنى على العطف، فلمّا تضمّنا معنى حرف العطف بُنِيَ لذلك كما فعلوا في "خمسة عشر". هكذا يقول العلامة: "ثم حذفت الواو إيجازًا وتخفيفًا، والمعنى على العطف، فتضمّنا معنى حرف العطف؛ فبُنِيَا لذلك كما فعلوا في خمسة عشر".

ثم أخذ ابن يعيش يذكر معنى الكلمتين قبل التركيب، وأقول: لماذا قبل التركيب؟ لأنَّ قبل التركيب لكلّ اسم معناه، فلما رُكِّب الاسمُ إلى الاسم فصار الاسمان اسمًا واحدًا حدث لهم بالتركيب معنى كالمثل، يضرب في التفرّق والاختلاط، ولا شكّ أن هناك جامعًا بين المعنى الأصلي لكلّ اسم وبين المعنى الذي تولّد من التركيب، لا مفارقة بين المعنى الأصلي وبين المعنى المولّد من هذا التركيب، وسوف ترى بيان ذلك.

يقول ابن يعيش: "وحيص مأخوذ من حَاصَ يَحِيصُ إذا فَرّ، يقال: ما عنه محيص أي: ما عنه مهرب، وبيص مأخوذ من بَاصَ يَبُوصٌ، فهو واويّ العين، أي فاتَ وسبق".

أقول: ألا تستطيع أن تربط بين المعنى الأصلي وبين المعنى المراد بالتركيب؟! قلنا: إن العرب تقول: وقع الناس في حَيْصَ بَيْصَ: إذا وقعوا في فتنة واختلاط لا مخرج لهم منه. وبين هذا الكلام الذي قلناه وبين ما ذكره ابن يعيش -من أن "حَيْصَ" بمعنى الفرار والمهرب ومن أن "بَيْصَ" بمعنى الفوات والسبق- فمعنى ذلك أن المعنى الأصليّ مراعًى عن التركيب، فالناس يفرّون، ويسبق بعضهم بعضًا، ولا يلتقون؛ وفي ذلك دلالة على تفرقهم وعدم تجمعهم، وعلى اختلاط أمرهم وليس اتفاق أمرهم، كل ذلك شاهدٌ على أنّ المعنى الأصليّ لكل اسم إنَّما هو مراد عند التركيب، فالحيص التأخّر والهرب، والبوص التقدّم والسّبق، فكأنك ترى الأمّة التي وقعت في "حَيْصَ بَيْصَ" بعضها سبق وبعضها تأخّر، وهذا معنى الاضطراب والاختلاط.

وهنا يأتينا سؤال مهم وهو: ما الذي كان ينبغي أن يكون؟ ولتوضيح هذا السؤال نعود فنقول: إن "حَيْصَ" مأخوذ من حَاصَ يَحِيصُ، وبيص مأخوذ من بَاصَ يَبُوصُ، وقد نبّهتك على أن ابن يعيش قال: "فهو واوي العين" أي: بَاصَ، مثل "قال" المكونة من قاف وألف ولام، ما أصل الألف في قال؟ ايتِ بالمضارع، تقول: "قال" مضارعه {ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ} [الأحزاب: 4] الله {ﮑ} إذن الأصل واو. و"باص" كـ"قال"، قال يقول، وباص يبوص؛ إذن فـ"قال" و"باص" من باب الواويّ العين، أي الذي عينه واو، فألفه غير أصليّة، ومعنى أن الألف غير أصلية أن أصلها الواو أو أن أصلها الياء.

إذن؛ فما الذي كان ينبغي أن يكون؟

أن يقول: وقع الناس في حَيْصَ بوص. لماذا هذا الذي كان ينبغي أن يقال؟ الجواب: لأنا قد عرفنا أن "باص" مضارعها "يبوص"، وأن مصدرها البوص، لكن عُدل عن هذا الأصل للموافقة والاتباع.

ومرّة أخرى نعود إلى حقيقة اللغة والحياة، فإن "بَوْص" جاء "بَيْصَ"؛ من أجل مجاورته "حَيْصَ"، فالأصل وقع الناس في حَيْصَ بَوْصَ، إلّا أنّ الانتقال من اليائيّ إلى الواويّ فيه صعوبة، ومن أجل تجاوز هذه الصعوبة، ومن أجل التّناسب، ومن أجل الجوار، عُدِلَ عن الأصل إلى ما ترونه واقعًا، وما نراه واقعًا هو حَيْصَ بَيْصَ، لا صعوبة في نطقها؛ لتناسب الياء مع أختها، لا مع عدوّتها الواو التي تناظرها في الثقل، والانتقال من الثقيل إلى الأثقل أمر تمجّه العربية، وهو أمرٌ -كما يقول الزمخشري- سمجٌ، أي: لا تستميله الآذان، ولا تستسيغه صدور العارفين باللغة الذين ينطقون بها كما ينطق الصّبح بالنسيم العليل، وكما تنطق الشمس بآيات الضحى الوضيء، وهكذا نجد العربية السهلة، ومن ثَمّ كان تنبيه ابن يعيش أمرًا مهمًّا، لماذا لم يقولوا وقع الناس في حَيْصَ وبوص، وقالوا: وقع الناس في حَيْصَ بَيْصَ؟ والجواب باختصار: أنَّ هذا من أجل التناسب.

وفي (النهاية) لابن الأثير كلام نفيس في هذا، والفراء صاحب (معاني القرآن) يمثِّل لذلك بقولهم: "أتيتُه بالغدايا والعشايا" وينبِّه الفرّاء إلى ذلك قائلًا: "والغداة لا تجمع على غدايا، وإنما جاز الجمع -أي جاز الغدايا- لمّا صحبت العشايا" انظروا إلى قول الفراء: "لما صحبت العشايا" إن العشايا جمع عشيّة، والغدايا كما في حديث النبي : ((لغدوةٌ في سبيل الله أو روحةٌ خيرٌ من الدّنيا وما فيها)) قال: "غدوة"؛ إذن هي واوية وليست كالعشية، فلمّا جُمعت العشية على العشايا، كان لزامًا على "غدوة" أن تجمع على غدايا؛ لكي تناسب العشايا، وفي ذلك تذكيرٌ لما ذكره سيبويه والأئمة من قولهم: "هذا جحرُ ضبٍّ خربٍ" وأنت تعلمون أن كلمة "خَرِبٍ" إنَّما هي نعت لـ"جحر"، والجحر مرفوع ونعته يجب أن يكون مرفوعًا، فلماذا جُرّ؟ الجواب: إنَّما جُرّ لمجاورته المجرور، فقد يظلمُ الجار بِذنب الجار، أي يؤخذ بذنب جاره، والأمر هنا ليس أمرَ ذنوب، وإنما الأمر هنا أمر تناسب.

ما ذكره ابنُ يعيش في اللّغات الواردة في "حَيْصَ بَيْصَ": وفي "حَيْصَ بَيْصَ" لغات:

اللغة الأولى: قالوا: "حَيْصَ بَيْصَ" بالفتح فيهما" أي في حَيْصَ وفي بَيْصَ، هكذا كما نقول: "حَيْصَ بَيْصَ" -بالفتح فيهما.

ونبّه -رحمه الله- إلى وجه هذه اللغة، وموقعها بين اللغات الواردة في "حَيْصَ بَيْصَ" فقال: وهو الكثير المشهور، أي أن أكثر اللغات وأشهر اللغات في "حَيْصَ بَيْصَ" أن تفتحَ الجزأين. إذن عد الآن فتفوّه باللغة المشهورة الكثيرة القمّة، ماذا تقول؟ تقول: حَيْصَ بَيْصَ -بفتح الجزأين- كما قلت: خمسة عشر. وأنشدوا عليه -أي: على اللغة العالية الكثيرة المشهورة- لأمية بن أبي عائذ -وهو من الكامل-:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| قَدْ كُنْتُ خَرّاجًا وَلُوجًا صَيْرَفً | \* | لَم تَلتَحِصْنِي حَيصَ بَيصَ لِحَاصِ |

أي: كنت أخرج وأدخل، وأتصرّف في أمور الحياة لا يقال فيّ: حَيْصَ بَيْصَ، أي: أني عرفت طريقي مستقيمًا، لا أتردد، ولم يشاهدني أحد مترددًا. الشاهد فيه بناء "حَيْصَ بَيْصَ" على الفتح، وتلك أشهر اللغات.

اللغة الثانية: "وقالوا: حَيْصِ بَيْصِ -بكسر آخرهما:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| صَارَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ حَيْصِ بَيْصِ | \* | حَتّي يَلُفّ عِيصَهُ بِعِيصِي |

كذا رووا، وما رووه حقّ في كسر الأول والثاني؛ إذن اللغة الثانية بكسر الأول وكسر الثاني، وانتبهوا إلى أنّ المقصود بكسر الأول كسر الحرف الأخير من الاسم الأول، وأن المقصود بكسر الثاني كسر الحرف الأخير من الاسم الثاني هكذا: "حَيْصِ بَيْصِ".

اللغة الثالثة: كسر الأول مع الفتح، يعني كسر الحرف الأول من "حَيْص" وكسر الحرف الأول من "بَيْص" مع بقاء فتح آخرهما، أي أنك تقول هكذا: "حِيصَ بِيصَ" "حِيصَ" بكسر الحاء مع فتح الصاد، و"بِيصَ" بكسر الباء مع فتح الصاد.

اللغة الرابعة: كسر الأول مع الكسر، أي أنك تقول: وقع الناس في "حِيصِ بِيصِ"، تكسر الأول مع الأخير من الاسمين، وعلى هذا تكون الواو في "بَيْص" قد انقلبت ياءً لسكونها وانكسار ما قبلها، على نحو "ميزان" و"ميعاد" ما معنى هذا؟ معنى هذا أن كلمة "ميزان" أصلها الوزن، فأصلها "مِوزَان" يقول الصرفيون: وقعت الواو ثانيةً ساكنةً إثر كسر فوجب قلبها ياءً، فالأصل في "ميزان" "مِوزَان"؛ لأنها من وزن، فقلبت الواو ياءً؛ لأن ساكنةٌ وقبلها كسرٌ، والكسر شديد يطلب للمناسبة ياءً، والياء أخت للواو عليلة كعليلة، فوجب قلبها ياءً.

أقول: ما الذي دعانا ودعا من قبلنا ابن يعيش إلى هذا التنبيه؟

الجواب: أن قد ذكرنا أن الأصل في "بَيْصَ" بَوْص. لماذا قلنا: "بَيْصَ"؟ لأنها جاءت بعد "حَيْصَ"، أي جاءت بعد يائي، فوجب القلب ياءً للمناسبة، فلما جاءتنا لغة تقول: "حِيصِ بِيصِ" ما عدا للمناسبة ها هنا من وجه وإن كانت معتبرةً، لماذا؟ لأنه قد طرأت علينا علّةٌ علميّةٌ صرفيّةٌ، تقول: الأصل وقع الناس في حِيصِ بِوصِ، فلمّا سكنت الواو إثر كسرٍ وجب قلبها ياءً فصارت بِيصِ، كما قلنا في موزان: ميزان، {ﮌ ﮍ} [الرحمن: 7] هكذا.

اللغة الخامسة: التنوين، أي أنك تقول: وقع الناس حَيْصًا بيصًا -منونة- حَكَاها أبو عمرو.

ثم يقول ابن يعيش: ويجوز أن تجعله صوتًا كأنه حكاية، أي: كأنه حكاية عما يقع في الاختلاط والفتنة. كأنّك تسمع الناس وقد اضطربوا، واختلفت أقدامهم، واختلفت أنفاسهم، يقول: حَيْص بَيْص حَيْص بَيْص... هكذا، كأنه صوت غراب، أو كأنه صوت ماء، أو كأنه صوت حمام، يخور ثور، وتثغو شاة، وتنهق حمر، والحمام هديل، وغدير وهدير وأزيز أسماء أصوات، فكأنك حَيْصَ بَيْصَ مثل هذا الانتقال من الحاء إلى الصاد إلى الباء إلى الصاد أصوات أناس لم يستقرّوا، وأصوات أناس لم يأتلفوا، وإنما هذا غادٍ، وهذا رائحٌ، وهذا مضطرب... وهكذا، فأنت تسمع أصواتهم كما قيل في كتب الأدب: "إنّ الشاعرَ كان نائمًا فلما استيقظ إنَّما استيقظ على أصوات أناس يموجون وفيهم حرف الصاد الذين يشبه الصفير، فقال: ما للناس في حَيْصَ بَيْصَ؟ فتناسى الناس اسمه وعرفوه بأنه حَيْصَ بَيْصَ، فقالوا: قال الشاعر: حَيْصَ بَيْصَ، وأطلقوه اسمًا عليه.

وعلى ذلك فلا اشتقاق لهما، أي: ليس لهما مع اعتبارهما حكاية ما يقع في الاختلاط، لا أصل لهما من حاص يحيص ولا من باص يبوص -كما عرفتم- لأنك قد جعلتهما اسمًا لصوتٍ فلا أصل لهما، ولا يعني ذلك أنه لا أصل لهما بالكلية، وإنما ذلك يعني أنّ الأصل متجاهل، فلا اعتداد به، ولا أصل للرجوع إليه ولا أساس ولا فائدة، فأيّ فائدة في الرجوع إلى أصل أنت لم تشأ أن تجعل له أصلًا؟ إنّ عندك المعنى القريب، والمعنى القريب ها هنا أنها اسم صوت، فما الداعي إلى أن تعود إلى حاص يحيص، أو أن تعود إلى باص يبوص، وأنت لم تقصد أصلًا ولم تراعِ معنًى كالذي راعيته حين قلت على اللغة الأولى: "حَيْصَ بَيْصَ" أي أنهم في فتنة واختلاط واضطراب، إنَّما قصدت صوتَ الآدميين إذا وقعوا في فتنة واختلاط، وعلى ذلك فلا اشتقاق لهما من شيء، كأنك قلت: غاق، أو غاقِ غاقِ إذا أردتَ صوتَ الغراب، وإذا قدّرته تقدير المعرفة قلت: غاقِ غاقِ، وإذا أردتذ التنكير نوّنته وهو المعروف بتنوين التنكير، كأنك قلت: غاقٍ غاقٍ -بالتنوين- لم تقصد صوتًا معينًا وإنما أردت صوتًا منكّرًا، أي: صوت صدر من هذا الطائر الذي لا تحدده ولم تنوِ تحديده.

2. كَفّة كَفّة: مبناها، ومعناها:

ينتقل بنا ابنُ يعيش إلى "كَفّةَ كَفّةَ" فيقول: وقالوا –أي: العرب- لقيته كَفّةَ كَفّةَ: إذا فاجأته، وهما اسمان رُكِّبا اسمًا واحدًا، وبنيا على الفتح بناء خمسة عشر، والأصل كَفّةً وكَفّةً، فلمّا أردنا التركيبَ والخفّةَ والإيجازَ حذفنا الواو، فلمّا حُذفت الواو رُكِّب الاسمان اسمًا واحدًا، فلما رُكِّب الاسمان اسمًا واحدًا بُنِيا على الفتح، والفتح أخفّ الحركات، وهذه لغةُ الخفّة والرشاقة والسهولة والجمال، والتركيب كخمسة عشر -كما عرفتم- الأصل خمسة وعشر، فحذفت الواو للتخفيف، وحذف التركيب، فَرُكِّبا خمسة عشر، وبُنيا على فتح الجزأين، وكذلك حَيْصَ بَيْصَ، إذا وقعوا في فتنة، وكذلك لقيته كَفّةَ كَفّةَ: أي لقيته مواجهة ومفاجأة لم أتجاوزه ولم يتجاوزني.

ويجوز أن يكون الأصل "كَفّةً على كَفّةٍ" قال ابن يعيش: "فهما مصدران في موضع الصفة، ومحلّهما نصب على الحال".

هذا ما قيل في كَفّةَ كَفّةَ، وقد سبق أن نبهناكم على معناه وما قاله العلماء فيه.

3. صَحْرَة بَحْرَة؛ مبناها، ومعناها:

قال ابن يعيش: وتقول: لقيته صَحْرَةَ بَحْرَةَ، أي: ليس بيني وبينه ساتر. إذا لقيت صاحبًا أو شخصًا ما ليس بينك وبينه من جدار، ولا من شجر وأنهار، ولا من شيء يحول بينكما كأنكما معًا طلوع النهار، فماذا تقول؟ أقول: لقيته صَحْرَةَ بَحْرَةَ، والْبَحْرَة هي المكان الواسع الرحيب، إذا لم يكن بينك وبينه من ساتر ركّبْتَ فقلت: لقيته صَحْرَةَ بَحْرَةَ، والتقدير هو التقدير السابق.

ما معنى "والتقدير هو التقدير السابق"؟

نحن نعلم أن التقدير في كَفّةَ كَفّةَ: كَفّةً وكَفّةً، وفي حَيْصَ بَيْصَ: حَيْصًا وبَيْصًا، ومعنى ذلك أن الواو مرادةٌ، وأن الاسمين لما تضمّنا معنى حرف العطف بُنِيَا، فالبناء لتضمّن معنى الحرف كما عرفتم في أكثر من موضع، معنى ذلك أنَّه أشار إلى أنَّ الواو مقصودة ومنويّة، وأن حذفها لعلة، وأن تلك العلّة هي الإيجاز والتخفيف، فلما حُذِفَت الواو وتضمّن الكلام معناها بني الاسمان لهذا السبب، وكان الفتح من أجل الخفّة، وموضعهما حال، والتقدير لقيته بارزًا.

وصَحْرَة وبَحْرَة مصدران، أي ذوي صَحْرَةٍ وبَحْرَة، أي ذوي انكشافٍ ووضوحٍ واتِّساعٍ، ولعل كلمة "بَحْرَة" تذكّرك بما كان يقوله الفلاحون في عاميتهم: "الْبَحْرَايَة" أي المكان الواسع، فكأنك تقول: لقيته صَحْرَةَ بَحْرَةَ أي: في انكشاف، وما معنى انكشاف؟ أي ليس هناك ساتر يحجبه عني أو يحجبني عنه، واتساع من أين استُفيد الاتساع؟ الجواب: إنَّما استفاد الاتساع من كلمة بَحْرَة، نعم.

يقول ابن يعيش: لقيته صَحْرَةً بَحْرَةً نَحْرَةً. ما معنى هذا الكلام؟ معناه: أن كلمةً ثالثةً قد ضمّت إلى التركيب، فهل يبقى التركيب؟ أي هل نقول: لقيته صَحْرَةَ بَحْرَةَ نَحْرَةَ؟ الجواب: لا.

فإنْ قلنا: لماذا امتنع ذلك؟ فالجواب: أن التركيب لا يكون من ثلاث كلمات، أي أنّ التركيب يقف عند منتهاه، ومنتهاه كلمتان لا ثلاث، فأنت تقول: لقيته صَحْرَةَ بَحْرَةَ، لكن إذا جئت بالثلاثة قلت: لَقِيتُهُ صَحْرَةً بَحْرَةً نَحْرَةً، تُعْرِبُ وتُنَوِّنُ، فما عاد للتركيب من وجودٍ، وما عاد له من داعٍ.

يقول ابن يعيش: "فيعربونها وينصبونها منونة" ثم ذَكَرَ علة ذلك فقال: "لأنها صارت ثلاث كلمات، وهم لا يركِّبون من الثلاثة، إنَّما التركيب من الكلمتين" أي إنَّما التركيب من كلمتين اثنتين فقط، وكلمة "نَحْرَة" ما معناها؟ لقد عرفنا "صَحْرَة" وعرفنا "بَحْرَة" أي بلا ساتر كأنها في الصحاري، وفي اتساع كاتساع البحر والبحراية، فما معنى نحرة؟ المعنى أول الشهر، كأنك حين قلت: لقيته صَحْرَةَ بَحْرَةَ نَحْرَةَ -على هذا الوجه الخاطئ في الضبط- إنَّما الصواب أن تقول: لقيته صَحْرَةً بَحْرَةً نَحْرَةً، أردت الوضوح، وأردت الاتساع، وأردت التنبيه على الوقت الذي لقيته فيه أنه كان في أول الشهر، فمن رأى صاحبه وضوحًا لا غموض ولا ستر فيه، وفي مكان كله اتساع، وكان ذلك أول الشهر، ماذا يقول؟ يقول: لقيته صَحْرَةً بَحْرَةً نَحْرَةً.

4. بَيْتَ بَيْتَ؛ مبناها، ومعناها:

ثم قال ابن يعيش: ويقال: هو جاري بَيْتَ بَيْتَ، يريدون القرب والتلاصق، ويقال: هو جاري بَيْتًا فَبَيْتًا، ويقال: بَيْتًا إِلَى بَيْتٍ؛ ولذلك لمّا حُذِفَ الحرف وضمِّن معناه، بُنِيَ لذلك وهما في موضع الحال كأنك قلت: هو جاري ملاصقًا، والعامل في الحال ما في "جاري" من معنى الفعل، ولا يجوز تقديم الحال فيه على العامل لو قلت: "بَيْتَ بَيْتَ هو جاري" لم يجز، والجواب: لماذا لا يجوز؟ لأن تقديم الحال على صاحبها الاسم على خلاف تقديمها على صاحبها الفعل.

# المراجع والمصادر

1. سيبويه، عمرو بن عثمان سيبويه (الكتاب) ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، بيروت، دار الجيل، 1991م
2. المبرد، محمد بن يزيد المبرد (المقتضب)، دار الكتب العلمية، 2000م
3. بن مالك، محمد بن عبد الله بن مالك (شرح التسهيل)، تحقيق: عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختون، القاهرة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، 1990م
4. القفطي، جمال الدين علي بن يوسف القفطي (أنباه الرواة على أنباه النحاة)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، 1950م
5. بن كثير، إسماعيل بن كثير (طبقات الشافعية)، دار المدار الإسلامي للتوزيع، 2003م
6. الحنبلي، ابن العماد عبد الحي بن أحمد الحنبلي (شذرات الذهب في أخبار من ذهب)، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، سوريا، دار ابن كثير، 1986م
7. الأنباري، عبد الرحمن بن محمد الأنباري (الإنصاف في مسائل الخلاف)، دار الكتب العلمية، 2007م
8. الأنباري، أبو البركات بن الأنباري (البيان في غريب إعراب القرآن)، دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، 2002م
9. الأنصاري، جمال الدين بن هشام الأنصاري (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)، دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، 2001م
10. الأشموني، علي بن محمد الأشموني (شرح الأشموني على ألفية ابن مالك)، دار الكتب العلمية، 1998م
11. بن جني، ابي الفتح عثمان بن جني (الخصائص)، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، 2006م
12. بن مالك، محمد بن عبد الله بن مالك (شرح الكافية الشافية)، دار الكتب العلمية، 2000م
13. الشافعي، محمد بن علي الصبان الشافعي (حاشية الصبان على شرح الأشموني)، دار الكتب العلمية، 1997م
14. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (بغية الدعاة في طبقات اللغويين والنحاة)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1964م
15. الطنطاوي، محمد الطنطاوي (نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة)، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، 1997م
16. الأستراباذي، محمد بن الحسن الرضي الأستراباذي (شرح الرضي على الكافية)، تحقيق: يوسف حسن عمر، جامعة قاريونس، 1978م
17. بن يعيش، يعيش بن علي بن أبي يسار بن يعيش (شرح المفصل)، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، 1996م.
18. بن منظور، محمد بن مكرم بن منظور (لسان العرب)، بيروت، دار صادر، 1970م
19. العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري (اللباب في علل البناء والإعراب)، دار الفكر المعاصر للطباعة والنشر والتوزيع، 1995م
20. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (همع الهوامع في شرح جمع الجوامع)، دار الكتب العلمية، 1997م
21. الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف بن عليّ بن حيان الأندلسي (تفسير البحر المحيط)، تحقيق: عادل أحمد وعلي معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، 1413هـ